# ظاهرة الاغتراب في حياة ابن الرومي وشعره

**د. نوره صالح الشملان**

ولد ابن الرومي سنة ٢٢١ هـ وعاصر سبعة من خلفاء الدولة العباسية وشهد اضطرابات كثيرة لعل أبرزها سيطرة الأتراك وتلاعبهم بمصائر الخلفاء من خلع وقتل وعزل.

ولم تكن الحياة الاجتماعية والاقتصادية أقل سوءاً من الحياة السياسية فقد سيطر الأتراك ومن والاهم على الثروة العامة وحرموا الناس منها وكان ابن الرومي يتألم لذلك ويعبر عن ألمه بقصائد رائعة تظهر الخلل الاجتماعي وتعري سلوك الحكام.

ولعل أكثر صفة لازمت ابن الرومي هي التطير والتشاؤم وقد ذهب بعض النقاد إلى أن

*ذلك يعود إلى خلل في جهازه العصبي . ونحن مع قبولنا لذلك فإننا لا نهمل أثر العصر الذي عاش فيه الشاعر في تغذية هذا الاستعداد الفطري .*

*أما أهم مظاهر الاغتراب في شعره فلعل أولها إحساسه بالوحدة والتفرد والضياع ويظهر ذلك في قصائده التي رثى بها أبناءه وإخوته ، كذلك يظهر هذا الإحساس في قصائده التي عبر بها عن خيبته من ممدوحيه وعدم حصوله على ما يحصل عليه معاصروه من الشعراء ، وهنا تبرز مشكلة أخرى حاولنا طرحها والتماس أسبابها ألا وهي نفور الممدوحين من ابن الرومي وحاولنا أن نستعين بآراء النقاد الذين لاحظوا ذلك ولعل المرزباني أولهم وفصلنا رأيه وناقشناه وملخصه أن عدوانية ابن الرومي وانقلابه على ممدوحيه هو السبب في نفورهم منه .*

*ومن مظاهر إحساسه بالغربة نفوره من كل قبيح لذا كثر الهجاء في شعره كثرة مفرطة فهو لا يكتفي بهجاء من أساء إليه وإنما امتد إلى هجاء كل قبيح ، إنه يكره القبح في أشكال الناس وأصواتهم وسلوكهم ولا يتورع عن السخرية بصورته إذا وقف أمام المرآة ونفر منها ويسخر من بعض صفاته التي جبله الله عليها وهو يتمنى عكسها كالبخل .*

*ويمتد هجاؤه من الإنسان إلى الجماد فهو يتأذى من منظر الشجرة التي لا تثمر فيهجوها وهكذا .*

*إن ديوان ابن الرومي يضم هجاء كثيرا لم يكن دافعه إلا نشدان الكمال .*

## ظاهرة الاغتراب في حياة ابن الرومي وشعره

### *١ — ابن الرومي حياته وأخباره :*

قبل أن نتحدث عن ابن الرومي الإنسان والشاعر لا بد أن نقف وقفة قصيرة موجزة عند العراق في عصر هذا الشاعر الذي تقول أخباره إنه لم يغادرها طوال حياته فابن الرومي الذي ولد سنة ٢٢١هـ (١) عاصر من خلفاء الدولة العباسية سبعة هم المتوكل على الله المستنصر بالله والمستعين بالله والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد .

فالمتوكل قد تولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ واستمر فيها حتى سنة ٢٤٧هـ والذي وصف المسعودي عهده بالقول . . «كانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد

الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا أيام ضراء»(٢).

ولكن يد القدر عبثت بهذه السعادة فسلطت على هذا الخليفة ابنه المنتصر فقتله وتولى الخلافة بدلا منه، ولكنه لم يستمر فيها إلا ستة أشهر فمات وخلفه المستعين بالله الذي تولى الخلافة بين سنة ٢٤٨ — ٢٥٢هـ وكان المستعين كما تجمع المصادر ضعيفا في رأيه وتدبيره وصفه صاحب الفخري بالقول« . . . واعلم أن المستعين كان مستضعفا في رأيه وعقله وتدبيره وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ولم يكن فيه من الخصال الحميدة إلا أنه كان كريما موهوبا وقد وصفه أحد الشعراء بالقول:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغاء(٣)

ولكن هذه الببغاء حكم عليها بالقتل من قبل الأتراك فنفوه ثم قتلوه وولوا المعتز الذي كان يخافهم ويخشى نكبتهم، وقد تحقق ما كان يخشاه وهنا يصف ابن الأثير خلعه على يد الأتراك فيقول« . . . فدخل عليه جماعة منهم فجروه إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقيهم بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه. . . »(٤).

وولى الأتراك المهتدي خلفا لأخيه المعتز ولم تكن حاله معهم بأفضل من حال أخيه وإن كانت شخصيته أقوى من شخصية سلفه وكان كما وصفه المسعودي « . . . أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب فثقلت وطأته على العامة والخاصة لحمله إياهم على الطريق الواضحة فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة حتى قتلوه. . . »(٥).

وتولى الخلافة المعتمد على الله سنة ٢٥٦ هـ وكان عصره حافلا بالأحداث الدامية مثل ثورة الزنج التي ألهمت ابن الرومي قصيدة رائعة يقول في بعض أبياتها واصفًا الحالة:

كم أخ قد رأى أخاه صريعا ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو معلى بصارم صمصام

كم رضيع هناك قد فطموه    بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر    فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها    بارزا وجهها بغير لثام

ثم يصف البصرة التي تحولت إلى أنقاض فيقول :

أين ضوضاء ذلك الخلق بها    أين أسواقها ذوات الزحام
أين فلك فيها وفلك إليها    منشآت في البحر كالأعلام
أين تلك القصور والدور فيها    أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بدلت تلك القصور تلالا    من رماد ومن تراب ركام(٦).

ولو سألنا التاريخ أصادق صاحب هذه الأبيات أم كاذب لأجابنا أنه صادق بلا شك فقد أمعن الزنج في قسوتهم ووحشيتهم واستهانتهم بالناس(٧).

وباختصار شديد نقول إن أيام المعتمد كانت أيام حروب وفتن، وقد فصل ابن الأثير ذلك(٨).

وكان المعتمد ضعيفا فتمكن أخوه الموفق من انتزاع السلطات منه ولم يبق له إلا الاسم فقط، إلا أن موت الموفق أعاد إليه بعض سلطاته، ويبدو أن الموفق قد خلف ابنا طموحا هو المعتضد بالله الذي استطاع أن ينتزع من عمه ولاية العهد وحين مات عمه عين خليفة وذلك سنة ٢٧٩هـ. وقد وصف ابن الأثير المعتضد بالقول «. . . كان شهماً شجاعاً مقداماً وكان ذا عزم وكان فيه شح وكان عفيفاً مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه»(٩).

واستمر المعتضد في الخلافة حتى وفاته سنة ٢٨٩هـ، وبعد وفاته تولى ابنه المكتفي بالله الخلافة.

تلك هي الفترة الزمنية التي عاش فيها ابن الرومي وكما يظهر من إيجازنا الشديد لأحداثها فترة كلها دسائس وخلافات وصراعات، ولعل ابتعاده عن قصور الخلفاء كان بسبب خوفه مما يجري فيها من قتل وتعذيب، ولم يكن حال الوزراء بأفضل من حال الخلفاء، ولو بحثنا عن أشهر الوزراء الذين اتصل بهم ابن الرومي لبرز لنا إسماعيل بن بلبل الذي مدحه ابن الرومي في قصائد كثيرة ثم انقلب عليه وهجاه، وقد عانى هذا الوزير من تقلبات الزمان

فقد استوزره الموفق لأخيه المعتمد وبلغ مبلغا عظيما من الجاه والمال وتسابق الشعراء إلى قصره بالمديح ولكن المعتمد بعد ذلك انقلب عليه فحبسه وقتله في محبسه واستولى على أمواله(١٠).

وهكذا نجد أن الأتراك يعبثون بالخلفاء والخلفاء يعبثون بوزرائهم وكأنهم ينتقمون لأنفسهم من الأتراك ويحاولون إثبات قوتهم وسيطرتهم.

أما الحالة الاجتماعية فأكتفي باستخلاصها من ديوان ابن الرومي الذي وصف فيه أصحاب القول والصول في زمانه من شرطة وكتّاب ووزراء وتجار.

متسمين الأمانة زورا    والمنافقين أخرب الخراب
خير مافيهم، ولاخير فيهم    أنهم غير اثمي المغتاب(١١)

أما حياتهم الخاصة فكلها عبث ومجون يقول:

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا    س وإن كان حبلهم ذااضطراب
في أمور في خمور وسمو    ر وفي قاقم وفي سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقـ    ـم ومن سندس ومن زرياب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ    كال والأشربات والأشواب(١٢)

ويستمر في استعراض وسائل اللذات والعبث التي يمارسها هؤلاء القوم مصورا إياهم بصورة بشعة مناقضة للصورة المثالية التي يرى أن الحاكم يجب أن يتحلى بها والتي يعرضها علينا من خلال أبياته التي يقول فيها:

يسود الفتى ما كان حشو ثيابه    حجا وتقى والحلم من بعد ثالث
وغيث على العافين منهمر الحيا    وليث هصور للعداة ملائث
وصفح وإكرام وعقل يزينه    خلائق لا يخزى بهن دمائث
وكفّان في هذا روى كل ظالم    وفي هذه للمستغيث مغاوث
فكن سعيدا ذا نعمة غير خامل    وصن منك عرضا أن يسبّك رافث(١٣)

ولست بحاجة إلى التعليق والموازنة بين سلوك حكام هذا العصر وبين الصورة المثالية التي ينشدها الشاعر في الحاكم، فمقابلة الأبيات ببعضها تغني عن كل إسهاب.

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها والتي سلطت ضوءاً خافتا ومرت مرورا سريعاً على البيئة التي نشأ فيها شاعرنا ننتقل إلى الحديث عنه فنقول هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج وقيل جورجيس المعروف بابن الرومي مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن من أخبار ابن الرومي ما تواتر من قصص تطيره من الأسماء ومن الأشخاص ومن الأيام ومن العاهات وجعل حياته خاضعة لذلك فهو يحجب نفسه في داره أياما لأنه رأى أحول أمام بيته(١٤).

وقد أشار القدماء إلى أن هذا التطير كان بسبب اختلال جهازه العصبي ولعل المرزباني هو أول من أشار إلى ذلك حين قال: «وكانت به علة سوداوية ربما تحركت عليه فغيرت منه»(١٥).

«وقد تبنى العقاد هذه الفكرة فذهب إلى أن البواعث التي أصابت ابن الرومي بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء»(١٦).

وأكد طه حسين هذه الفكرة حين قال «كان حاد المزاج مضطربه معتل الطبع ضعيف الأعصاب حاد الحس جدا يكاد يبلغ من ذلك الإسراف»(١٧).

ونحن مع قبولنا هذا فإننا لا نهمل تأثير العصر الذي عاش فيه شاعرنا على تغذية هذا الاستعداد الفطري للطيرة والتشاؤم، وقد أشرنا إلى ما اكتنف ذلك العصر من غدر ودسائس وكثرة فتن.

بعد هذا الإيجاز الذي قدمناه للبيئة الكبيرة التي عاش فيها ابن الرومي ننتقل إلى مظاهر الاغتراب في شعره محاولين ربطها بالأحداث التي مرت عليه.

### ٢ — *مظاهر الاغتراب في شعر ابن الرومي:*

إن أول ما يطالعنا من مظاهر اغتراب الشاعر وإحساسه بالوحدة والتفرد والضياع قصيدته التي رثى بها أمه وهي قصيدة طويلة تشهد أبياتها بالفجيعة التي مني بها وإذا كانت

القصيدة قد جاوزت المئة بيت فإن كل بيت فيها يعكس جزع ابن الرومي وإحساسه بالضياع والقنوط والخيبة ومن أبياته المعبرة عن إحساسه بالغربة بعد أمه **قوله** :

**أقول وقد قالوا أتبكي كفاقد        رضاعا وأين الكهل من راضع الحلم**
**هي الأم يا للناس جرعت ثكلها        ونبيك أما لم تذم قط لا يذم**(١٨) .

وبعد أمه مات اخوته وأبناؤه وأبدع في رثاء ابنه محمد وأجاد في تصوير ساعة احتضاره ومما يظهر إحساسه بالغربة **قوله**:

**كأني ما استمتعت منك بنظرة        ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد**
**كأني ما استمتعت بضمة        ولا نسمة في ملعب لك أو مهد**
**ألام لما أبدي عليك من الأسى        وإني لأخفي منه أضعاف ما أبدي**
**وأنت وإن أفردت في دار وحشة        فإني بدار الأنس في وحشة الفرد**(١٩)

فهو وحيد كثيب متفرد منعزل وإن كان بين الناس . وتوالت النكبات على الشاعر ففقد زوجه وأبناءه واحدا بعد الآخر فرثاهم رثاء باكيا صادقا . وأثرت الأحداث المريرة والأحزان المتتالية عليه فحبسته في سجن من الأسى **فقال معبراً عن ذلك**:

**ومن يلق ما لاقيت في كل مجتنى        من الشوك يزهد في الثمار الأطايب**
**أذاقتني الأسفار ما كره الغنى        إليّ وأغراني برفض المطالب**
**ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة        رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب**
**فصبري على الأقتار أيسر مطلبا        عليّ من التغرير بعد التجارب** (٢٠)

إن الشاعر في الأبيات السابقة يبدو يائسا من كل خير لأنه اعتاد الخيبة وتجرع كأس الفشل ومني بالضياع فحكم على نفسه بالعزلة والاستسلام للفقر فما الذي جعله يسلك هذا المسلك وأخباره تشير إلى إسرافه في حب الطعام والملاذ المباحة والمحرمة .

ووقفة قصيرة عند قصيدته التي **مطلعها** :

**نجاك يا ابن الحاجب الحاجب        وأين ينجو مني الهارب**(٢١)

تظهر لنا ذلك، لقد جمع في هذه القصيدة كل ملاذ الحياة التي يعشقها من طعام وشراب وغناء ومجلس أنس.

إذن فقد كان في ترفعه مجبراً لا مختاراً وفي شعره ما يشير إلى قلة حظه من عطاء الممدوحين الذين كانوا مصدر التمويل للشعراء في زمانه إن صح هذا التعبير يقول:

إن كنت من جهل حقي غير معتذر    وكنت من رد مدحي غير متثب
فاعطني ثمن القرطاس الذي كتبت    فيه القصيدة أو كفارة الكذب(٢٢)

فهو يستجدي ممدوحه ويؤكد أنه كان كاذبا في مديحه وما ذلك إلا التماسا للعطاء.

وبلغ من فشله في التعايش مع الممدوحين أن أحدهم يرد عليه القصيدة التي مدحه بها معلنا زهده فيها وعدم حاجته إليها فيشتاط ابن الرومي غضبا ويقول بانكسار وحزن:

رددت عليّ مدحي بعد مطل    وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت أمدح به من شئت غيري    ومن ذا يقبل المدح الرديدا؟
ولا سيما وقد أعمقت فيه    مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في أكفان موت    لبوس بعدما امتلأت صديدا(٢٣)

إن الأبيات السابقة تضعنا أمام حقيقة مذهلة وهي أن قصائد المديح هي أثواب فضفاضة يلبسها أي ممدوح.

ولا بد هنا أن نتساءل عن سبب هذا السلوك الذي قوبل به الشاعر أعني سبب نفور الممدوحين منه وقد ذهب المرزباني إلى أن خوف الممدوحين من انقلابه هاجيا كان سببا في ابتعادهم عنه يقول« . . . ولا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس ومرؤوس إلا وعاد عليه فهجاه ممن أحسن إليه أم قصر في ثوابه، ولذلك قلت فائدته من قول الشعر وتحاماه الرؤساء»(٢٤).

ومعلوم أن المرزباني يضع تبعة قلة حظ ابن الرومي من عطاء الممدوحين على عدوانيته وتقلب مزاجه وانقلابه هاجيا سالبا ممدوحيه كل ما منحهم من خصال. أما العقاد فيرجع هذا الفضل إلى قلة حيلته وقلة دهائه فيقول« . . . إن ابن الرومي لم يكن مؤهلا لمنادمة الممدوحين لأنه كان قليل الحيلة قليل الدهاء والحيلة والدهاء بضائع رائجة في القرن الثالث. . . »(٢٥).

ولا شك أن العقاد يرى تبعا لمقاييس القرن الثالث أن الشاعر يجب أن يكون نديما وجليسا حسنا وأن هذه الموهبة تسبق أو تتفوق على موهبة الشاعرية وقوتها. ويذهب طه حسين إلى أن سبب نفور الممدوحين من ابن الرومي يعود إلى حدة مزاجه وضعف أعصابه الذي جعل الناس يبغضونه ويتبرمون به(٢٦).

ولو سألنا ابن الرومي عن سبب هذا النفور لأجابنا بالقول:

رأى القوم لي فضلا يعاديه نقصهم     فمالوا إلى ذي النقص والشكل أقرب
خفافيش أعشاها نهار بضوئه     ولاءمها قطع من الليل غيهب
بهائم لا تصغي إلى شدو معبد     وأما على حافي الحداء فتطرب(٢٧)

وواضح من الأبيات أنه يجعل تفوقه على هؤلاء الممدوحين في العقل والثقافة وسعة المعرفة هو الذي جعلهم يبتعدون عنه لأن علمه يذكرهم بجهلهم وكماله يذكرهم بنقصهم.

ويشكو شاعرنا الاغتراب في زمان انقلبت فيه الموازين فيقول:

ورجال تغلبوا بزمان     أنا فيه وفيهم ذو اغتراب
غلبوني به على كل حظ     غير حظ يفوت كل اغتصاب(٢٨)

ولا شك أن الحظ الذي يفوق كل اغتصاب هو شاعريته التي تفوق بها على من تفوقوا عليه بالمال المغتصب في ظل زمن سخيف ظالم، وتبدو حسرته على حرمانه حين يقول:

أتراني دون الألى بلغوا الأ     مال من شرطة ومن كتّاب؟
وتجار مثل البهائم فازوا     بالمنى في النفوس والأحباب
فيهم لكنة النبيط ولكن     تحتها جاهلية الأعراب
أصبحوا يلعبون في ظل دهر     ظاهر السخف مثلهم لعاب(٢٩)

ويعزي نفسه ويحاول أن يخفف من مصيبته في هذا الزمان المتقلب فيزعم أنه من الشرفاء الذين قسى عليهم الدهر فما دام شريفا فلا بد أن يعاني ما يعانيه الشرفاء يقول:

دهر علا قدر الوضيع به     وهوى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه     سفلا وتطفو فوقه جيفه (٣٠)

إن الشاعر يلجأ إلى نوع من إقناع النفس بالواقع المر والتخفيف من الشكوى الصارخة إلى الاستسلام، وتأمل عزيزي القارىء كيف شبه نفسه ومن يماثله بالدر وشبه أهل زمانه بالجيف التي تطفو على السطح.

إن اغتراب الشاعر يبدو جليا واضحا في هذا التشبيه الذي يظهر المسافة والبعد بينه وبين معاصريه.

ومن مظاهر إحساس ابن الرومي بالاغتراب نفوره من كل شيء قبيح فهو يكره القبح في أشكال الناس وأصواتهم وسلوكهم ولا يتورع عن السخرية بصورته إذا وقف أمام المرآة ونفر من شكله فيقول:

جزى الله عني قبح وجهي سعادة     كما قد جزاه والإله قدير
ذعرت به قوما فأدوا أتاوة     كأني عليهم عند ذاك أمير (٣١)

وهو يعشق الكرم ولكنه يكتشف أنه بخيل فيثور على نفسه معترفا بعيبه داعيا الله أن يقيه من ذلك العيب فيقول:

قِني يا إلهي شح نفسي فإنني     أرى الجود لي حظا وشيمتي البخل (٣٢)

ويغشى أحد مجالس الممدوحين طالبا الأنس فيزعجه صوت مغنية قبيح فيعبر عن امتعاضه بالقول:

كنت عند الأمير عيسى بن ها     رون وفهم وذاك في تموز
فتغنت فهزني القر حتى     خلت أني في وسط العجوز (٣٣)

فصوت هذه المغنية لبرودته وقبحه جعله يشعر بالبرد الشديد وهو في شهر تموز أكثر أشهر السنة حرارة.

واستمع إلى مغن في مجلس آخر فلم يعجبه ولم يطربه وشبه صوته بعواء الكلب وبحث عن وسيلة يسد بها مسامعه عن هذا الصوت القبيح فقال:

ومغني ببرده ونداه    تخمد النار حين يفتح فاه
يتمنى السميع حين يغني    أنه قبل ذاك صمّ صداه(٣٤)

ولا بد أن نشير إلى أن ديوان الشاعر يظهره محبا للغناء عاشقا للصوت الجميل وأحيل القارىء إلى قصيدته في وحيد المغنية ففيها الخبر اليقين(٣٥).

ويذهب إلى مجلس أنس فيستمع إلى مغنيتين الأولى تطربه والثانية تبعث في نفسه الكرب فيعبر عن ذلك بالقول:

دريرة تجلب الطربا    ونزهة تجلب الكربا
تغني هذه فيظـ    ـل عنك الحزن قد غربا
وتعوي هذه فتطيـ    ـل منك الحزن والوصبا(٣٦)

ولولا خشية الإطالة لأوردنا أبياتا أخرى من تلك القصيدة الطريفة التي يقوم فيها النقد على الموازنة والمقابلة.

فشاعرنا كان يعشق الصوت الجميل فإذا ما اصطدم سمعه بصوت قبيح عبس وبسر وأرعد وأزبد وسخر وهجا.

ويشاهد مجموعة من العميان يتحدثون فيسيئه منظرهم وبدلا من أن يظهر شفقته عليهم ينعتهم بالقول:

مجالسة العمى تعذى العمى    فلا تشهدن لهم مجلسا
فإن شاهدتهم مرة    فكن منهم الأبعد الأبعدا
بحيث تفوت إشاراتهم    وإلا فإنك منهم غدا(٣٧)

ونحن مع استنكارنا لهذه القسوة فإننا نعتقد أنها يمكن أن تدلّ على نشدان صاحبها للكمال.

وتجمعه مائدة طعام مع أكول نهم فيصوره بهذه الصورة التي تعري سلوكه فيقول:

بعض أضراسه يكارم بعضا    فهي مسنونة بين سنون
لا دؤب إلا دؤب رحاها    أو دؤب الرحى التي للمنون
قسما لو وقفتها للمساكين    لما مسهم غلاء الطحين

ما ظننت الإنسان يجتر حتى     كنت ذاك الإنسان عين اليقين(٣٨)

ويصادف أصلع فيسخر منه قائلاً :

فوجهه يأخذ من رأسه     أخذ نهار الصيف من ليله(٣٩)

ويبغض رجلا لا لعداوة بينهما ولكن لثقل ظله فيقول :

يا ثقيل الثقال أقذيت عيني     ليت أني كما أراك تراني
من يكن عانياً ببغض حبيب     ففؤادي ببغضك اليوم عاني(٤٠)

وينظر إلى امرأة سوداء فلا يعجبه منظرها فيقول ساخراً :

هي سوداء غير أنّ عليها     ظلمة تدلهم منها القلوب
فتراها كأنها حين تبدو     عظلم فوق صدرها مصبوب(٤١)

ويسير في أحد شوارع بغداد فيرى حمالاً ينوء بحمل ثقيل فيسوؤه منظره ويصفه وهو من خلال هذا الوصف يعلن استنكاره لذلك المجتمع القاسي يقول :

رأيت حمالا مبين العمى     يعثر بالأكم، وفي الوهد
محتملا ثقلا على رأسه     تضعف عنه قوة الجلد
بين حمالات وأشباهها     من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامدا     أو تائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم     أذل للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه     فر من اللؤم إلى الجهد
فر إلى الحمل على ضعفه     من كلحات المكثر الوغد(٤٢)

والأبيات غنية عن التعليق فهي تؤكد استجابة ابن الرومي لأنّه الجريح واستنكاره للقسوة ونفوره منها ويهديه أحدهم قينة يدعي أنها جميلة فيكتشف ابن الرومي العكس فيصب غضبه على قبحها فيقول :

كأنها في نتنها ثومة     لكنها في اللون أترجّه
تبدو بوجه قحل يابس     قد نزعت من صحنه البهجة

ويغشى أحد المجالس فيصادف رجلا أكل ثوما وأزعج أفراد المجلس برائحته الكريهة **فيهجوه قائلاً:**

**ترى الأقوام يعتلفون ثوما        ويغشون المجالس كالهموم**
**فإن عيرتهم بالنتن قالوا        كذا نكهات أفواه القروم**
**فسوء الفعل يردف سوء قول        ونتن الثوم يردف نتن لوم**
**ألا قبحا على قبح وسحقا        لهاتيك المناظر والجسوم(٤٤)**

ويبدو ومن الأبيات أن شاعرنا حاول إصلاح الأمر بالمعروف، ولكن هذا الرجل كان مصرا على خطئه فاستخدم ابن الرومي سلاحه الفتاك للسخرية منه وتوجيه ضربته القاضية.

ويتلفت حواليه فيجد الظلم فاشيا بين الناس فيؤلمه ذلك ويقول:

**صاحب الظلم ان تأملت كالرا        تع في المرتع الوبيل الوخيم**
**يجتلي أمره فيعلم أن قد با        ع ليل الكرى بليل السليم**
**فهو من لؤم نفسه حين يحلو        في غرام وفي عذاب أليم(٤٥)**

ويمتد هجاء ابن الرومي من الإنسان إلى الجماد فهو يتأذى من منظر الشجرة التي لا تثمر ولا تورق فيقول:

**أيا شجرا بين الرسيس فعاقل        منحتك ذمي صادقا غير كاذب**
**نديت ولم تورق ولست بمثمر        فكن غرضا مستهدفا للنوائب**
**فما فيك من ظلّ لغلّ ظهيرة        وما فيك من جدوى لجان وحاطب(٤٦)**

وقريب من ذلك هجاؤه للعوسج وهو شجر كثير الشوك لا ثمر له ومما قاله في ذلك:

**عذرنا النخل في ايداء شوك        يذود به الأنامل عن جناه**
**فما للعوسج الملعون أبدى        لنا شوكا بلا ثمر نراه(٤٧)**

إن مجال هذه المقالة لا يسمح لنا ببسط القول في استعراض الأبيات التي قالها ابن الرومي في كل ما يؤذي البصر أو السمع أو الشعور فالديوان حافل بذلك ولا ننسى أن نشير

إلى أنه كـان يهجو أيضا كـل المعاني التي يكـرهها فهو يهجـو الفراق ويهجو البخـل ويهجو الظلم ويهجو الكذب. . . الخ

إن هذا النوع من الهجاء الذي لم يكن دافعـه إلا نشدان الكمال يجعلنا نتحفظ في قبول ما قالـه أحد نقاده مـن أن هجاءه يقطر سما ويتطـاير شرراً وأن فيه ميلا إلى الاعتداء(٤٨). كما يجعلنا نرفـض ما ذهب إليه دارس آخر حين قال: «كـان كلفا بالقبح يتحرى عنـه ليفرح به ذلك أن القبح في الناس يقنعـه بتفوقه عليهم أو على الأقل يقنعه بـأنه يشبههم في قبحهم. فهو إذا صادف القبح شرع يتفرس به يطويه في نفسه، يهجس به ويتمثله حينا بعد حين ثم ينشره وقد فتق له بأبشع صور السخرية والتشـويه ولعلي به يشعر أثناء عملية التشويه بغبطة ورضى وكأنه يقبض مبضعا يجريه على أجسام الناس في كل جهة يدميهم ويتفنن في العبث بهم وإيذائهم ليشفي ثاراته منهم»(٤٩).

يبدو لي أن العكس هو الصحيـح فابن الرومي ينشد الكمال في كـل شيء ينشده في المنظر وفي المخبر فإذا افتقده صب غضبـه على القبح الذي احتل مكانه، وإلا بماذا نعلـل سخريته من أصحاب العاهات. . . أكانت بينه وبينهم ثارات وعداوات؟

وبماذا نعلل هجاءه للمغنين والمغنيات الذين لا تعجبـه أصواتهم وأنغامهم؟ وبماذا نعلل هجاءه لرجل أكـل ثوما وغشى مجلسا أكان غير نشدان الكمال هـدفه؟وقبل هذا وذاك بماذا نعلل هجاءه لنفسه خلقا وخلقة. . هل كان عدوانيـا على نفسه وهل كان يريد الانتقام من ذاته؟؟.

إننا لا ننكر طغيان الهجاء على ديوان ابن الرومي ولا ننكر أنه قد استخدم كل أسلحة هذا الغرض فهـو يسخر تـارة مستخدما الـدعابة وحسن التصـوير ويقسو أحيـانا مستخـدما الفحش والإقـذاع ويعمد إلى أسلـوب الوصف والتحليـل تارة ثالثـة. وقد أفـاض النقاد في الحديث عن ابن الرومي الشاعر الهجاء منذ عصر ابن رشيق الذي أسقط كل ما قاله الشاعر من هجاء ساخر ووقف عند شعره الذي يتميـز بالإفحاش يعزز ذلك قوله «. . . كان يطيل ويفحش وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته. . . »(٥٠).

# الحواشي

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية والدول ص ٢٢٥ـ٢٥٥ .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط . بولاق ١٢٧٤ ، ج٨ ص ٦٨ .

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٣ .

(٦) ديوان ابن الرومي، ج ٦ ص ٢٣٧٧ـ٢٣٧٨ .

(٧) الكامل في التاريخ، ج٧ ص ٢٠٥ـ٢١٥ .

(٨) الكامل في التاريخ، ج ٧ ص ١٥٨ .

(٩) الكامل في التاريخ، ج ٧ ص ١٨٣ .

(١٠) الفخري ص ٢٥٣ .

(١١) ديوان ابن الرومي، ج١ ص ٢٨٢ .

(١٢) الديوان، ج١ ص ٢٨٤ـ٢٨٥ .

(١٣) الديوان، ج١ ص ٤١٤ .

(١٤) راجع أخبار تطيره في:

أ ـ زهر الآداب للمصري، ج ٢ ص ٣١٢ .

ب ـ خزانة الأدب للبغدادي، ج ٢ ص ٢٣ .

(١٥) معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٥ .

(١٦) ابن الرومي حياته من شعره ص ١٧١ .

(١٧) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ١٣١ .

(١٨) الديوان، ج ٦ ص ٢٣٠ .

(١٩) الديوان، ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٢٠) الديوان، ج١ ص ٢١٤ .

(٢١) الديوان، ج ١ ص ١٨١ .

(٢٢) الديوان، ج١ ص٢٤٤ .
(٢٣) الديوان، ج٢ ص٦٠٤ .
(٢٤) الموشح ص ١٤٥ .
(٢٥) ابن الرومي حياته من شعره ص ١٥٦ .
(٢٦) من حديث الشعر والنثر ص ١٣١ .
(٢٧) الديوان، ج١ ، ص ١٥٥ .
(٢٨) الديوان، ج١ ، ص ٢٨٠ .
(٢٩) الديوان، ج١ ص ٢٨٢ .
(٣٠) الديوان، ج٤ ص ١٥٧١ .
(٣١) الديوان، ج٣ ص ١٠٩٣ .
(٣٢) الديوان، ج ٥ ص٢٠٤٦ .
(٣٣) في الأدب العباسي ص ٢٨٨ .
(٣٤) الديوان، ج ٣ ص ١١٥٣ .
(٣٥) الديوان، ج١ ص ١٢٨ .
(٣٦) الديوان، ج١ ص ١٧٩ .
(٣٧) الديوان، ج٣ ص ١١٢٨ .
(٣٨) راجع العمدة ج٢ ص ١٧٠ .
(٣٩) الديوان، ج٢ ص ٦٩٠ .
(٤٠) الديوان، ج٦ ص ٢٥٥٦ .
(٤١) الديوان، ج٥ ص ١٩٣٢ .
(٤٢) الديوان، ج٦ ص ١٤٤٧ .
(٤٣) الديوان، ج١ ص ١٦١ .
(٤٤) الديوان، ج٥ ص٧٠٥ .
(٤٥) الديوان، ج٢ ص٥٠١ .
(٤٦) الديوان، ج٥ ص ٢١٣٧ .
(٤٧) الديوان، ج٦ ص٢٢٥٥ .

(٤٨) الديوان ج١ ص ٢٩١ .
(٤٩) الديوان ج١ ص ١١٣ .
(٥٠) في الأدب العباسي ص ٢٨٨ .
(٥١) الفنون الأدبية وتطورها لإيليا حاوي ص ٤٩ .
(٥٢) العمدة لابن رشيق ج٢ ص ١٧٠ .

## مصادر البحث ومراجعه

١ — ابن الأثير، علي بن أحمد بن أبي الكرم ـ الكامل في التاريخ ط : بولاق ١٢٧٤هـ .

٢ — البصير، محمد مهدي : في الأدب العباسي ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة السعدي، بغداد ١٩٥٠م .

٣ — حاوي إيليا : فن الهجاء وتطوره عند العرب دار الثقافة ـ بيروت .

٤ — حسين ، طه : من حديث الشعر والنثر ط : دارس المعارف بمصر ١٩٦٥م .

٥ — الحصري، أبو اسحاق إبراهيم بن علي ت ٤٥٣ ـ زهر الآداب وثمر الألباب، ضبط وشرح الدكتور زكي مبارك . دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

٦ — ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ٦٠٨ ـ ٦٨١هـ . وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس ط : دار صادر ـ بيروت ١٩٧٧م ـ ١٣٩٧هـ .

٧ — ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ٣٦٠ ـ ٤٥٦هـ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — دار الجيل — بيروت .

٨ — ابن الرومي ، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج ـ ديوان ابن الرومي، تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ مطبعة دار الكتب ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .

٩ — ابن طباطبا، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بالطقطقي ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٩٢٣م .

١٠ — العقاد، عباس محمود : ابن الرومي حياته من شعره ـ الطبعة السادسة ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م.

١١ — المرزباني: معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ ط: دار الكتب العربية ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م.

١٢ — المسعودي، أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ١٣٤٦هـ.

## The Phenomenon of Aloofness in Ibn Al-Rumy's Life and Poetry

Ibn Al-Rumy was born in the Hejra year of 221 and witnessed the reigns of seven Abbasid Califfs at a time of political turmoil.

· Social and economic conditions were no better those days. The Turks were in control of public wealth depriving the common man of the necessities of life.

Ibn al Rumy, as a witness to those conditions, expressed his pain in poems of high quality.

More than anything, Ibn al-Rumi was known for his pessimism and superstition. some critics related this state of mind to some psychological imbalance. Yet one should not underestimate the influence of the prevailing conditions of his time on his attitude to life.

The most significant expressions of aloofnees in his poetry are those related to his feelings of lone - liness. We can see this in poems dealing with the loss of his dear ones and others expressing his disappointment with those whom he praised and who did not reward him the way they did other poets. This did not escape the attention of some critics like al-Marzaban. Indeed, Ibn al-Rumiy's aggressiveness against those whom he previously praised were the reason that they shunned him.

Another expression of his aloofness was his hatred of any thing he considered ugly including peoples shapes, sounds and attitudes. He did not hesitate, in fact, to mock his own face and some of his characteristics. This attitude goes beyond people to things like his mocking of trees that bear no fruits.

●●●